أفاقت عائشة من مرض السفر على مرض أشدّ.. أفاقت رضي الله عنها والعالم ينهار على رأسها.. بكت بكاءً مراً حتى أحرق البكاء كبدها، أما والداها فكالحزن حولها.. ليس بأيديهما ما يخفف وجع هذه الشابة المكلومة المبتلاة ولا ما يسليها.

أما النبي الحزين الحائر ﷺ فالوحي لم ينزل عليه حتى الآن، والإشاعات تحاصره وتخنق أنفاس حبيبته، فاجتهد ﷺ اجتهاد البشر، واستدعى علياً وابنه أسامة بن زيد بن محمد، فقد ضاق به الحال، وتأذى كثيراً وهو يسمع المنافقين يلوكون عرضه الطاهر ليل نهار، فهل من نهاية لهذا الأمر..؟ إلى أين يأخذه الحزن..؟ إلى أين تأخذه قدماه الشريفتان..؟

توجّه النبي ﷺ إلى أحد أبياته.. إلى بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها بالتحديد، ليسألها عن عائشة فهي التي تنافسها من بين زوجات النبي ﷺ، فلعلّها تقول شيئاً يزيل حيرته ﷺ.. لعله يعرف مصادر الفرية التي تلوكها أختها «حمنة».

النبي ﷺ يسأل زينب

وزينب كالمطر.. ستقول الحقيقة، ولن تأبه بحمية أختها لها وغيرتها من عائشة.

تقول عائشة: أن (رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك)[2] (وكان الذي يتكلم به فيه: «مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي بن سلول» وهو الذي كان يستوشيه[3]، ويجمعه، وهو الذي تولّى كبره[4] منهم هو وحمنة)[5] التي لم تكن تعرف

---

(١) تنافسني.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم -التوبة.

(٣) ينشره ويحث غيره على نشره وإشاعته.

(٤) معظمه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤ - ١٧٨٠ والزيادة للطبراني ٢٣-١١٠.

النفاق، لكنها الغيرة التي تورد من يرعاها بين أضلاعه موارد الضياع والهلاك، والهوى يعمي ويصم، والصحابة ومنهم حمنة وحسان ومسطح بشر غير معصومين.

أما نبي الله ﷺ فقد توجهت به الهموم إلى مزيد من التساؤل والاستشارة، فقد آذاه ابن سلول في أهله وصاحبه، وقد تجاوز أذاه كل الحدود.

النبي ﷺ يستشير ويسأل عن حل

تقول عائشة رضي الله عنها: (ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[1]، يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً «وهذا الكذب والباطل».

وأمّا علي بن أبي طالب فقال: «يا رسول الله» لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، «وإنك لقادر على أن تستخلف» وإن تسأل الجارية تصدقك)[2].

فأخذ ﷺ برأي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سؤال جارية عائشة واسمها «بريرة»، ولم يأخذ رأيه بتطليقها الذي يلوح بين كلماته، ليريحه من همّ التفكير والحيرة التي طالت عليه ﷺ.

استدعاء بريرة

تقول عائشة الطاهرة: (فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟

قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه[3] عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[4] فتأكله)[5]

---

(١) تأخر عن النبي ﷺ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٦-٢٦٨٣ واللفظ له والبخاري ٢-٩٤٢ والزوائد لابن إسحاق.

(٣) أعيبها به.

(٤) الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم ٤-٢١٢٩.

(وانتهرها بعض أصحابه[1]، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به[2])[3] (فقال رسول الله ﷺ: لست عن هذا أسألك.

قالت: فعمه..؟ فلما فطنت قالت: سبحان الله!! «والله» ما أعلم من عائشة إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر[4] الأحمر)[5]

وماذا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر النقي قبل صياغته واختلاطه بغيره سوى النقاء..؟

كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشة، أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون قيحاً وصديداً ينزّ من نفوسهم السوداء، لكن ماذا عن البرىء الآخر.. (صفوان بن معطل) ذلك الشاب الذي قُذف هو الآخر، ولوّثه المنافقون بأنفاسهم الموبوءة،

تنامى إلى سمعه ما يقال عنه وعن أمّه عائشة، فما زاد على كلمات تحدثنا عنها عائشة، فتقول: (وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له: فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط!!)[6]

لكن عبد الله بن أبي بن سلول يصرّ على تشويهه والافتراء عليه، ويتشهى بذكره وذكر أمّه عائشة في مجالسه، حتى طفح الكيل، فأغضب صنيعه رسول الله ﷺ فماذا فعل؟

رسول الله ﷺ يخطب حزناً

فبعد أن سمع ﷺ رأي أقرب الناس من عائشة، وأعلمهم بحالها.. خاصة أسامة وزينب وبريرة.. تحرك نحو منبره، وجمع أصحابه يطلب منهم أن يعذروه.. أن ينصروه على ذلك المنافق الذي يخرج من أعماقه وسخه ليلطخ به رسول الله ﷺ وأهله وأصحابه.

---

(١) هو علي بن أبي طالب، وقد ورد أنه ضربها ضرباً شديداً، لكنني لا أستطيع الجزم بصحة سند هذه العبارة، فربما كانت من المراسيل التي عند ابن إسحاق.

(٢) أي: صرحوا لها بالتهمة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

(٤) الذهب النقي الخالص.

(٥) سنده صحيح رواه الطبراني ٢٣-١٠٦ وأبو يعلى ٨-٣٣٥ من طريق حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٦) هو بقية حديث البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

تقول عائشة المكلومة: «فخرج النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه»، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر[1] من عبد الله بن أبي سلول. فقال: رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا[2] أهلي، ما علمت عليهم من سوء قط، وابنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا تغيب قط إلاّ وهو معي، ولا دخل بيتي قط إلاّ وأنا شاهد». يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[3]، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله[4]، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله «أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم».

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان: الأوس والخزرج «حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد»، حتى همّوا أن يقتتلوا)[5].

تأزم الموقف، ورقص الشيطان طرباً لما يحدث، وتمايل قلب عبد الله ابن أبي بن سلول وفرك الحقد يديه فرحاً.. ابتهج المنافق بالمسافة التي وصلت إليها الأمور.

يا الله.. كلمة واحدة.. لا دليل عليها ولا برهان سوى الكذب.. أوصلت الأمور إلى حد كادت السيوف أن تُسلّ، والدماء أن تغرق المسجد ومن فيه، وتلك العبارات التي تفوّه بها سعد بن عبادة رضي الله عنه في دفاعه عندما اجتهلته الحمية.. تلك

---

(١) من يقوم بعذري ولا يلومني إن جازيته على فعله القبيح.

(٢) رموهم بخلق قبيح وقذفوهم بالزنا.

(٣) وهو سيد الأوس.

(٤) أي أنا أنصرك.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) والزوائد للبخاري (٤٧٥٧).

العبـارات التي قيلت دفاعاً عـن رأس المنافقين وخبيثهم في سـاعة غضب وحمية.. كانـت كلمات خطيرة جداً.. كانت مليئة بالدماء.. قالها أحد عظماء الإسـلام ورجاله السابقين، ولا تقل عنها في الخطورة تلك الكلمات التي أطلقها أسيد بن حضير رضي الله عنه غضباً لله ورسوله، وهو من عظماء الإسلام ورجاله السابقين كسعد بن عبادة، لكنه غضب لله ورسوله غضباً جعله يصف ابن عبادة الكريم بالنفاق.

تلـك الألفاظ التي انطلقت كالرصاص الطائش داخل المسـجد كانت أمام سـمع النبي ﷺ وبصره.. أمام سمع نبي مجروح في عرضه وشرفه ومكانته، وهو قائد هذه الأمة، وفي بقعة هي من خير البقاع على وجه الأرض.. داخل المسجد النبوي الكريم.

موقفان خطيران.. حدثا أمام النبي ﷺ، ومازالت مشاهدهما تتكرّر في كل زمان.. موقفان يتجسدان أكثر ما يتجسدان بين الدعاة وبين العلماء.. بين من يحملون الإسلام خطـاً ومنهاجاً وإن تحوّرت القبيلة إلى جماعة في بعض المشـاهد.. موقفان لا يمكن وصفهما إلاّ بالتطرف.

موقف من تجتهله الحمية وتقوده فينسـى نفسه وحدوده، وموقف من يغضب لله ومحارمه غضباً ينسيه نفسه وحدوده، فإذا غضبه يقتحم النوايا والقلوب والضمائر.

لا هذا الموقف يهم، ولا ذاك.. لا موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه، ولا موقف أسـيد بن حضير رضي الله عنه، لأنها تسـر وتفرح ابن سـلول ومـن معه من أعداء المسـلمين جميعاً، والمتضررون منها هم المسـلمون ودولتهم الفتيـة، أما نحن فأمامنا موقف هذا الحزين الواقف فوق منبره..

هذا النبي الذي لا ينطق عن الهوى..

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسـلّم.. ما أجمله وأحلمه وأحكمه.. هو الحكم والحكمة.. محمد ﷺ والبقية تبع لمحمد..

ماذا فعل بأبي هو وأمي، وهو يحس بالمنايا تموج تنتظر السيوف والدماء..؟

لقد قتل الفتنة في مهدها، وأعاد الطرفان إلى الصواب والحكمة، فسعد بن عبادة ملء السمع والبصر، وأسيد بن حضير ملء السمع والبصر، لكنهما غاضبان، والأمر لا يستحق أن تسفك من أجله الدماء، وما سفكت الدماء في مثل هذه المواقف إلاّ لغياب تلك الحكمة التي تتلألأ فوق منبره ﷺ.

تقول عائشـــة وهي تشعر بأن تلك السيوف تســـافر في قلبها أن الأوس والخزرج (همّوا أن يقتتلوا، ورســـول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت.

قالت عائشة: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي)[1].

كاد الحـــزن أن يهلكهـــا ويفنيها.. إنهـــا تصف الحزن الذي أحرق كبدها شـــهرا، والمأساة التي وصلت إليها فتقول: (لما بلغني ما تكلّموا به، هممت أن آتي قليباً فأطرح نفسي فيه)[2] لكنها لم تفعل لخوفها من الله وثقتها به، وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر في أمر شابة طهور كالمطر.

تواصل حزنها وحديثها عن النبي ﷺ وما جرى في مسجده فتقول: (وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنـــوم، «فأصبح أبـــواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً»، وأبـــواي يظنّان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي «معي».

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رســـول الله ﷺ «وقد صلّى العصر»، فســـلم. ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شـــهراً لا يُوحى إليه في شـــأني بشـــيء «وقد اكتنفني أبواي عن يميني وشمالي» فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا.. وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاســـتغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب «إلى الله» تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته[3]، قلص دمعي[4] حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله فيما قال.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

(٢) سنده حسن من أجل ابن خداش وقد وثقه أئمة النقد وجرحه غير مفسر، التهذيب ٣-٧٤. رواه الطبراني ٢٣-١٢١. حدثنـــا أحمد بن القاســـم حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بـــن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشـــة. ابن أبي مليكة تابعي ثقة التقريب ٣١٢ وتلميذه الســـختياني ثقة ثبت حجة وحماد ثقة ثبت فقيه وشيخ الطبراني ثقة، البلغة (٦١).

(٣) حديثه.

(٤) توقف دمعها.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ)[1].

سكت الجميع.. خرست الكلمات وفاضت الدمعات والزفرات، فتحررت من صدر عائشة الطاهرة المظلومة كلمات كالجمر.. زفرات لا تضل طريقها أبداً:

دعوة مكروب

انفجـــرت داخل صدرها كالبركان.. دعوة نبيّ الله يعقوب عندما فقد أحبّ أبنائه إليه يوسف وبنيامين عليهما السّلام.. دعوة أطلقها يعقوب بعدما أصابه العمى، وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، لكن حزن عائشة أنساها اسم ذلك النبيّ المكروب.

حاولت تذكره فلم تستطع، لكنها عاشت معاناته ودعاءه، فتوجهت عائشة الصغيرة نحو أبيها الذي لا يدري ما يقول.. نحو أمها التي تمسح دمعها، ونحو حبيبها الذي آذاه الناس وتأخّر عنه الوحي، فقالت كلمات كالجمر.. قالت رضي الله عنها: (فقلت: وأنا جارية حديثة الســـن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، «تشـــهدت، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليـــه بما هـــو أهله ثم قلت: أما بعد»: إنـــي والله، لقد عرفت أنكم قد ســـمعتم بهذا حتى اســـتقرّ في نفوســـكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقونـــي بذلك، «والله عزّ وجلّ يشـــهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم»، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني بريئة، لتصدقونني «إن قلـــت إنـــي فعلت، والله يعلم أني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفســـها». وإني والله، ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ «والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه»)[1]

حاولت عائشة تذكر اسم يعقوب فلم تستطع، فألقت بجسدها وقلبها المتعبين على فراش كالمرض، وألقت بكمدها وبثها إلى الله وسكتت.

---

(١) هو حديث البخاري ومسلم السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

فقد بلغ بها المرض والكرب مسافات أتعبتها وضعضعت جسدها النحيل الذي كان قبل أيام يسابق رسول الله ﷺ ويسبقه على طريق بني المصطلق، أما اليوم فهي جلد على عظم، وحزن على حزن، ولكن الله أرحم بهذه المسكينة التي أنحفها الضَّيْم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

هبطت رحمة الله ونزل عدله سبحانه، فسمعت عائشة في تلك الحجرة حركة غريبة وهمهمة ليست غريبة، فاعتدلت بهدوء ونظرت فإذا النبي ﷺ يغشى عليه ويوحى إليه، والعرق يتحدّر من جبينه الشريف، وهو يعاني ثقلاً وشدّة من نزول الوحي عليه.. كان ثقلاً يزيح عن عائشة جبالاً من الهموم.. نزل الوحي بـ:

براءة عائشة رضي الله عنها

تقول رضي الله عنها بعد أن لهجت بدعائها: (فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون. ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي، وأنا والله يعلم أني بريئة، وأن الله مبرّئي ببراءتي. ولكن، والله، ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلّم الله عزّ وجلّ فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

فوالله ما رام[1] رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ، فأخذه[2] ما كان يأخذه من البرحاء[3] عند الوحي، حتى إنه كان ليتحدّر منه مثل الجمان[4] من العرق في اليوم الشات[5]، من ثقل القول الذي أنزله عليه، «وأنزل على رسول الله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فرفع عنه وإني لأتبيّن السرور في وجهه وهو يمسح جبينه» فلما سرّي[6] عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برّأك «أنزل الله براءتك». فقالت لي أمي: قومي إليه.

---

(١) أي: ما فارق.

(٢) جاءه أصابه.

(٣) الحمى الشديدة التي تسيل العرق.

(٤) مثل حبات اللؤلؤ.

(٥) أي أن ذلك يسيل منه حتى في أيام الشتاء الباردة.

(٦) انتهى ما به من معاناة نزول الوحي.

فقلت: والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلاّ الله، هو الذي أنزل براءتي، «وكنت أشد ما كنت غضباً.

فقال لي أبواي: قومي [فقبلي رأس رسول الله]، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه».

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ (١) مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ (٢) وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣) ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ (٤) فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ (٥) بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ (٦) فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (٧)، عشر آيات، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات براءتي)(٨).

---

(١) جماعة.

(٢) المقصود حسان وحمنة ومسطح وهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

(٣) المقصود رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(٤) خضتم فيه.

(٥) تتلقونه ويرويه بعضكم عن بعض وهو كذب.

(٦) تنتشر.

(٧) أكملت الآيات العشر للفائدة.

(٨) هو حديث البخاري مسلم السابق.

وتصف عائشة رضي الله عنها حالها وثقتها بربها وطهارتها، وتصف حالة والديها والخوف يكاد يقتلهما، خشيت أن تثبت التهمة على ابنتهما..

أثناء نزول هذه الآيات الكريمات، والنبي ﷺ مغشى عليه من شدّة الوحي كانت حجرة عائشة عوالم من المشاعر والانتظار والتقرب، تشعر بها عائشة البريئة فتقول: (فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووُضعت وسادة من أدم[1] تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا[2] من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس[3].

ثم سرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدّر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: أبشري يا عائشة، قد أنزل الله براءتك. قلت: الحمد لله)

ثم قام ﷺ وخرج من البيت متجهاً نحو الناس.. نحو المدينة.. نحو العالم، ليخبرهم ببراءة حبيبته إلى يوم القيامة.. ليكشف للمدينة كذب ابن سلول ومن معه، وليضع أمام الدنيا.. كل الدنيا حقيقة طاهرة، وحكماً لا يزول: أن من سيقذف عائشة بعد اليوم فقد كذب الله وكفر بكتابه.. خرج ﷺ لـ:

إعلان البراءة واستدعاء الجناة

تقول عائشة: (ثم خرج ﷺ إلى الناس، وتلا عليهم ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك و«لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس، نزل فأمر برجلين وامرأة، ممن تكلم بالفاحشة في عائشة فجلدوا حدهم»: أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدّهم)[4]

---

(١) جلد. (٢) خوفاً.

(٣) أي خوفاً من أن تصدق تلك التهمة الكاذبة.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من رواية الإفك الصحيحة: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة، عن عائشة. عبد الله تابعي ثقة التقريب ٢٩٧ وعمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ثقة تتلمذت على عائشة وأكثرت الرواية عنها التقريب ٧٥٠.

أي جلد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثمانين جلدة، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[1] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] وقد تاب الثلاثة رضي الله عنهم بعد أن نزلت الآيات، وتأكدوا من تهوّرهم واستخفاف ابن أبي بن سلول بعقولهم، وكان لأبي بكر موقف من مسطح تبيّن من خلاله مدى الجرح الذي كان يئن منه أبو بكر ويعاني، لكن إيمان أبي بكر كان أعظم من أي موقف.. أسما من أي قرار يتّخذه ساعة غضب، لأنه أبو بكر، ولأنه الصدّيق.

موقف أبي بكر الغاضب

تقول عائشة رضي الله عنها: (فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة «فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فقال أبو بكر: «بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا»، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت ينفق عليه، «وعاد له بما كان يصنع»، وقال: لا أنزعها منه أبداً)[3]. فأفاق مسطح بن أثاثة على نسمات أبي بكر الباردة، وأدرك عظمة الصديق وكرمه، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في حقه وحق ابنته الطهور، فأبو بكر الذي تغلغل في سويداء النبي ﷺ واحتلّ ما لم يحتله غيره.. لا يستحق كل هذا العقوق، ولكي يعرف العالم مساحة أبي بكر في عالم النبي ﷺ أسوق هذه القصة التي حصلت فيها:

---

(١) يتهمونهن بالزنا.

(٢) سورة النور: الآيتان ٤، ٥.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧) ومسلم -التوبة-.

مشادة بين أبي بكر وعمر

سوء خلاف بين أعظم رجلين في أمة محمد ﷺ.. سوء الخلاف ذلك أثار غباراً انقشع، فلم تر الدنيا بعد انقشاعه إلاّ أبا بكر، ثم عمر والباقين رضي الله عنهم جميعاً.

صحابي جميل اسمه أبو الدرداء شاهد ما حدث ورواه، فقال: (كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر[1].

وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم، وجلس إلى النبي ﷺ، وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر.

قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ «فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر[2] حتى أشفق[3] أبو بكر، فجثا على ركبتيه»[4]، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم «يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم».

فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت «وواساني بنفسه وماله»

«فما أوذي بعدها»)[5]

إذا كانت هذه الغضبة من أجل أبي بكر وفي أمر يسير، ومع من؟ مع عمر وما أدراك ما هذا العظيم المسمّى عمر، فماذا يقال عن إيذاء مَنْ هم دون عمر، وافتراء من هم أقل من عمر على أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) أي خاصم.
(٢) يتغير لونه.
(٣) خاف.
(٤) جلس على ركبتيه.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦٤٠) والزوائد عنده (٣٦٦١).

هذه المرة لم ينتصر النبي ﷺ لأبي بكر.. لقد انتصر له الله، وآزره الله، وأنزل فيه وفي ابنته آيات تتلى إلى يوم القيامة، أما عدوّه وعدّو الله وعدوّ رسول الله ﷺ (عبد الله بن أبي بن سلول) جرثومة النفاق، فقد وجدت له سببين لكل هذه الحملة القذرة التي شنّها ليلوّث بها عرض رسول الله ﷺ وعرض صاحبه الصديق:

السبب الأول هو كفره وحقده وحسده للنبي ﷺ على زعامته وإقامته دولة مسلمة في عقر داره ودار قومه.

أما السبب الثاني، فهو سؤال حول:

عبد الله بن أبيّ بن سلول هل كان قواداً

والقواد هو الشخص الوضيع الذي يقوم بتنظيم حفلات البغاء وتأجير البغايا، مقابل مبالغ قذرة مثله، وكان عبد الله بن أبيّ يقوم بذلك، بل كان يرغم جاريته على ذلك إرغاماً، ويبدو أنه تضايق كثيراً عندما نزل تحريم الزنا، فهو وأمثاله يريدون نشر مهنتهم في هذا المجال وإشاعتها، وعندما لم يجد بدّاً من التخلص من قذارته رماها على عتبة دار عائشة النظيفة النقيّة.

يقول أحد الصحابة: (في قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾: نزلت في عبد الله بن أبي، كانت عنده جارية «يقال لها مسيكة»، وكان يكرهها على الزنا، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾)[1]، بهنّ.

إذاً فهذا هو عالم ابن سلول المليء باليهود والعفن والبغايا والنفاق، وهو عالم ما زال يتناسل حتى اليوم.. تناسل الحشرات التي لا تجد نفسها إلاّ عند العفن، وهو لم يكن

---

(١) سنده صحيح رواه البزار ٣-٦١ ، زوائد والطبراني ١١/٢٨٤) والطبري في تفسيره والزيادة له: حدثني الحسن بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر. الحجاج والحسن صدوقان وابن جريج وأبو الزبير صرحا بالسماع ورواه البزار عن ابن السائب عن ابن جبير عن ابن عباس، وعن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس واللفظ له والزيادة للطبري.

كذلك في جاهليته، لكنه الحسد.. يطيح بالقامات ويجتث من النفوس المكرمات، ويسفل بالهمة والاهتمامات، أمّا من حاول الدفاع عنه في لحظة من لحظات الضعف البشري حين تمسّها العصبية، فله قصة أخرى جعلته يفيق من لحظة السهو القصيرة تلك.

أقصد سعد بن عبادة رضي الله عنه، الذي تحدّى سعد بن معاذ أن يقتل عبد الله ابن أبي بن سلول.

قصة ابن عبادة مع القذف

ابن عبادة الكريم.. الصحابي العظيم الجليل.. يحب قبيلته، ويتمزّق قلبه لأفعال ابن سلول المشينة.. يؤلمه ما يقوله عبد الله بن أبي، ويتمنى هدايته لكن ابن أبي كان حجراً.

نزلت الآية تبيِّن أن من قذف يجلد، فتحركت الغيرة في دم سعد بن عبادة وغلت، فتكلم بكلام لم يعجب النبي ﷺ، فابتلاه الله بمصيبة وقعت في قومه، فكانت عاراً على قوم ابن أبي بعد أن كان يتمنى تعليق العار على باب النبي ﷺ.

فعندما (نزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، قال سعد بن عبادة: لهكذا أنزلت يا رسول الله؟! لو أتيت لكاع[1] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجته! «إن أنا رأيت لكاع متفخذها رجل، فقلت بما رأيت، إن في ظهري لثمانين»، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟

قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلاّ عذراء، ولا طلّق امرأة له، فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها «فقال رسول الله ﷺ: فإن الله يأبى إلاّ ذاك»[2].

قال سعد: «صدق الله ورسوله» يا رسول الله بأبي وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته.

---

(١) وصف يطلقه سعد هنا على الزوجة التي يراها زوجها وهي تزني.

(٢) أي أن الله لا يقبل إلا حكمه سبحانه.

فواللـــه ما لبثوا إلاّ يســـيراً حتى جاء هلال بن أميّة «ابن عـــم له» من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني.

فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رســـول الله، إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلاّ حقاً، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً.

واجتمعـــت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال ســـعد، أيجلد هـــلال بن أمية، وتبطل شـــهادته في المسلمين؟ «فشق ذلك على المســـلمين، فقال: لا والله لا يجعل في ظهري ثمانين أبداً، لقد نظرت حتى أيقنت، ولقد استسمعت حتى استشفيت».

فهمّ رســـول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورســـول الله ﷺ جالـــس مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمســـك أصحابه عـــن كلامه حين عرفوا أن الوحـــي قد نزل، حتى فـــرغ، فأنزل اللـــه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ[1] وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟[2] عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

فقال رســـول الله ﷺ: أبشـــر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله. فقال رســـول الله ﷺ: أرســـلوا إليها. فجـــاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ، قيل لها: فكذَّبت. فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي لقد صدقت، وما قلت إلاّ حقاً. فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما)[3].

---

(١) يقذفون زوجاتهم.

(٢) يمنع ويدفع عنها الحد.

(٣) حديث صحيح انظر: تخريجه عند نهاية القصة.

ما هي الملاعنة

الملاعنــة تكون بين الزوجين فقــط، وذلك في حالة اتّهام الــزوج لزوجته بالزنا، فيحلــف قائلاً أربع مرات: أشــهد بالله أنني صادق في اتهامي، وفي المرة الخامســة يقول: أن لعنة الله عليَّ إن كنت كاذباً عليها. بعد ذلك يقام على زوجته الحد والعقوبة إلا في حالة أن تدافع عن نفسها، وذلك أن تشهد هي بالله أربع مرات أنه لمن الكاذبين في اتّهامه لها. أي تكرر أربع مرات شــهادته كالتالي: أشــهد بالله أن زوجي كاذب. ثم تقول في المرة الخامسة: أن غضب الله عليَّ إن كان من الصادقين.

(فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما.

قيل لهلال: يا هلال، اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. فقيل له عند الخامسة: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب.

فقــال هلال: واللــه لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها رســول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل لها: اشــهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. فقيل لها عند الخامســة: اتقي الله، فإن عذاب الله أشــدّ من عذاب النــاس، وإن هذه الموجبة التي توجب عليها العذاب، فتلكأت[1] ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي.

فشهدت الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق بينهما رسول اللــه ﷺ، وقضى أن الولد لها، ولا يدعــى لأب ولا يرمى ولدها)[2]. أي لا يقال لابنها: يا ابن الزنا أو الحرام.

وكان اسم الرجل المتهم بالمرأة «شريك بن سمحاء».

---

(١) ترددت وأحجمت.

(٢) سنده قوي رواه الطبري في تفسيره ٩-٢٧٠ حدثنا خلاد بن أسلم أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا عباد، وسمعت عكرمة عن ابن عباس: عباد بن منصور الناجي صدوق صرح بالسماع من عكرمة التقريب ٢٩١ وخلاد والنضر: ثقتان التقريب ١٩٦ و٥٦٢.

يقول أحد الصحابة وهو يروي القصة: (قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، فتلكأت ونكصت حتى ظننّا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت.

فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين[1]، سابغ الإليتين[2]، خدلج الساقين[3]، فهو لشريك بن سمحاء. فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن)[4] فقد صدق هلال وكذبت، ولكن أحكام الإسلام لا تبنى إلا على البينات والأدلة، لا الرجم بالغيب والحدس والظنون.. لا يطبق الحدّ بعد نزول هذه الآية إلاّ بالاعتراف أو البيِّنة، حيث قال ﷺ: (لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة رجمت هذه)[5].

كان حادث الإفك افتراءً.. ظلماً وتجنّياً على عائشة، لكن رحمة الله وانتصاره للمظلوم وعدالته.. أحالته إلى دروس وأحكام وبراءة.

ها هي عائشة بريئة كيوم ولدتها أمّها.. ها هي وقد غمرها ﷺ بأمواج حبّه وفؤاده.. ها هي وقد رفعها الله بآيات كريمات، وتكلّم في شأنها، ودافع عنها جبار السموات والأرض، فما أسعدها بهذا النعيم الخالد.

كان الفرح بحجم الدنيا في صدر عائشة، لكنها غاضبة غضباً شديداً، وعاتبة عتاباً أشد على من يسكنون قلبها.. زوجها ﷺ، ووالديها رضي الله عنهما، فلم تقدم لهم أي نوع من أنواع الامتنان والشكر، ومع ذلك لم يلمها أحد منهم، فالذي مرّ على هذه الفتاة المسكينة ثقيل جداً، ومرير جداً، فسمعة المرأة وشرفها عند العرب تعادل حياتها، وهم لم يدفنوا بناتهم وهنّ صغار إلاّ خشية أن يتّهمن بما اتّهمت به عائشة، ومن يستطيع أن ينفي تهمة في ذلك المجتمع.

الهدم أسهل من البناء في كل المجتمعات خاصة المحافظة، فهل تُلام عائشة إذا غضبت على من أحبّتهم..؟

---

(١) وورد في الصحيح أدعج وأسحم.
(٢) أي عظيم كما جاء في بعض الألفاظ.
(٣) ممتلئ.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٤٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٣١٠).

لم يلمها ﷺ، بل استرضاها وأرضاها بلطفه ورقته وحبّه، كان ﷺ يقول لها: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى. فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ: أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين، لا، وربّ محمد. وإذا كنت غضبى، قلت: لا، وربّ إبراهيم.

قلت: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلاّ اسمك)[1].

نهضت عائشة من الموت، وتهادت كالنهر.. كالبدر نحو:

بساتين الحب

بساتين الحب التي زرعها ﷺ ونسق شجيراتها وأزهارها.. تدلّلت فيها عائشة، ورفرفت كالفراشة فيها.. كالعبير.. حتى (كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة «يبتغون مرضاة رسول الله ﷺ». قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة[2]، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار.

فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليَّ، ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها)[3].

وانقسم نساء النبي ﷺ إلى:

حزبين في بيت النبوّة

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن نساء رسول الله ﷺ كنّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية[4] وسودة.

والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل عائشة.

(٢) أي يهدون للنبي ﷺ في اليوم الذي يكون فيه عند عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٧٥).

(٤) زوجة قادمة للنبي ﷺ سوف تأتي قصتها فيما بعد.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ، أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أم سلمة فقلن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلّم الناس)[1]

فذهبت أم سلمة وكلّمته وحدث ما حدث كما في القصة السابقة، لكن حزب أم سلمة لم يستسلم.. واصل المطالبة، وهذه المرة قرّر الحزب أن يضغط على النبي ﷺ، مستخدماً جانب العاطفة الأبوية.. مدركاً مدى رقّته ﷺ ورحمته ببناته وأولاده، خاصة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

قرّر حزب أم سلمة ذلك عن طريق حبيبته فاطمة، مع أن النبي ﷺ كان يقضي عند كل واحدة يوماً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟

فقالت: بلى.

قال: فأحبّي هذه.

فقالت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ: فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقلن لها: ما نراك أغنيت عنّا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلّمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وهي التي تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٨١).

في العمل الذي تصدق به، وتقربا إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة[1] كانت فيها، تسرع منها الفيئة.

فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها. فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبّتها».

وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه، وهل يأذن لي فيها.

فلم تبرح زينب «حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة: هل تكلم؟». حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

«فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها»، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها [أن أثخنتها غلبة] «فنظر النبي ﷺ إلى عائشة». فقال رسول الله ﷺ وتبسّم: إنها ابنة أبي بكر)[2]

وقد انتصرت وانتصر حزبها، لأنها لم تفعل ما يجرح شعورهن رضي الله عنهن، لكنهن يطالبن النبي ﷺ بالعدل، وهو عادل إلاّ في شيء واحد لا يستطيع التحكّم فيه، وهو قلبه، فهو بشر كبقية البشر.. لديه ما لديهم من الأحاسيس والمشاعر والميول، ولم يكن ﷺ يتدخّل في كل ما يحدث بين زوجاته من أمور طبيعية تحدث عادة بين النساء عند زوج واحد، إلاّ إذا تجاوزت إحداهن الحد.. عندها يحكم ﷺ بالعدل ويقوم بفضّ الاشتباك.

رضي حزب أم سلمة بمكانة عائشة، بل قدم تنازلات أكثر ليحظى بحب الله ورسوله، فبدلاً من أن يطالب حزب أم سلمة مرة أخرى بأن تكون هدايا الناس في أوقات وأبيات مختلفة، قام هذا الحزب الطيّب بتقديم الهدايا للنبي ﷺ، لكن متى وأين..؟

---

(١) سرعة غضب لكنها سرعان ما تنطفئ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم وما بين المعقوفين له.. والزوائد للبخاري (٢٥٨١).

أم سلمة تهدي للنبي ﷺ وهو عند عائشة

هكذا انقلب الحال، ومن كان له حيلة فليحتال، وما دام الهدف هو الوصول إلى قلب الحبيب محمد ﷺ والمنافسة عليه، فلا بأس بالتضحية، ولا بأس بكتم الغيرة مؤقتاً..

فعلت ذلك أم سلمة رضي الله عنها وحزبها المعارض، لكن عائشة أدركت أهداف أم سلمة وأدركتها الغيرة، وخافت أن تزحزحها أم سلمة عن عرش الحب الذي تنعم به، فقامت للتصدي لأم سلمة ولمحاولاتها، ولكن بطريقة أكثر انفعالاً مما فعله حزب أم سلمة، وأشدّ قسوة مما قالته زينب، فما الذي جرى بين أم سلمة وعائشة رضي الله عنها..؟

تحدثنا أم سلمة نفسها عن محاولتها وهديتها فتقول: (إنها أتت بطعام في صحفة[1] لها، إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء، ومعها فهر[2]، ففلقت[3] به الصحفة.

فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة.. ويقول: كلوا، غارت أمكم.... كلوا، غارت أمكم.

ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة لعائشة)[4] فانتصرت أم سلمة رضي الله عنها هذه المرة، وانتصر حزبها.

ليست الغيرة فقط تحدث بين حزب وحزب، بل أحياناً داخل الحزب الواحد تغلي الغيرة، وليست هذه المرة الوحيدة التي تندفع فيها عائشة نحو تصرّف تندم عليه.. مأخوذة بالغيرة وحبّها الشديد للنبي ﷺ.

ففي أحد الأيام تصرّفت تصرفاً ندمت عليه فتمنّت أن تلاقي حتفها، رغم أن الأمر لا يستدعي الموت، لكنها الغيرة.

---

(١) إناء.

(٢) حجر.

(٣) كسرت.

(٤) سنده صحيح رواه النسائي (٧/٧٠): أخبرنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أبي المتوكل عن أم سلمة.. وأبو المتوكل تابعي ثقة اسمه علي بن داود الناجي (التقريب - ٢/٣٦) وتلميذه تابعي ثقة عابد وهو البناني - التقريب (١/١١٥) وحماد ثقة من رجال مسلم وهو أثبت الناس في ثابت البناني (السابق - ١/١٩٧) وأسد صدوق (التقريب - ١/٦٣) ويلقب بـ (أسد السنة) وشيخ النسائي ثقة انظر (التقريب - ١/٤٢٥) فالسند بذلك صحيح وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٥/٣٦٠).

عائشة تدعو على نفسها بالموت

تقــول رضي الله عنها: (كان رســول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نســائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل ســار مع عائشة، يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى.

فركبت عائشــة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشــة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشــة وعليه حفصة، فســلّم، ثم ســار معها حتى نزلوا. فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[1]، وتقول: يا رب سلط عليَّ عقرباً، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً)[2] ولا تستطيع أن تقول لحفصة شيئاً، فهي التي جنت على نفسها.

أي غيرة تســكن عائشة، وأي حب ذلك الذي يأكل معها ويشرب، ويحلّ ويرتحل.. كان حب عائشة للنبي ﷺ سماءها وأرضها وبحارها التي لا شاطئ لها.

لكن ماذا عن حب النبي ﷺ لعائشة.. ماذا عن حب محمد لهذه البراءة.. إلى أي مدى هو، وما المسافات التي قطعتها عائشة في قلبه وبين حناياه..؟

النبي ﷺ نفســه.. في ســاعة حب وصفاء لعائشة.. في ساعة لم يكن فيها سوى محمد وعائشة والحب.. تحدّث ﷺ بحديث يتقاطر شهداً وحباً.. حديث لم تسمع مثله حبيبة قط.. حديث جعل عائشة تشعر أن الشمس والقمر والدنيا كلّها بين يديها.

حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي درجة؟

تقول رضي الله عنها: (جلســت إحدى عشــرة امرأة، فتعاهــدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالــت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا ســهل فيرتقى، ولا سمين فينقل[3].

---

(١) نبات طيبت الرائحة توجد به الهوام غالباً في البرية.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الفضائل.

(٣) تصفه بأنه كلحم الجمل الهزيل ويصعب الوصول إليه أيضاً، فالوصول إليه شاق، ليس فيه مصلحة حتى تنقله الناس إلى بيوتها وتستفيد منه.

قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره، أذكر عُجره وبجره[١].

قالت الثالثة: زوجي العشنق: إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق[٢].

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة: لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة[٣].

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد[٤].

قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرب اشتفّ، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البثّ[٥].

قالت السابعة: زوجي غيأياء، أو عيأياء، طباقاء، كل داء له داء، ثجك، أو فلك، أو جمع كُلاً لك[٦].

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب، والمس مس أرنب[٧].

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد[٨].

قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهنّ هوالك[٩].

---

(١) تقول إنها لا تشيع خبر زوجها ولا تذكره.. لأنها لن تنتهي من إكماله لكثرة عيوبه.. والعجر تعقد العروق والعصب ونتؤها.. والبجر هو نتؤ في البطن.

(٢) العشنق هو الطويل أي ليس فيه إلا طول دون نفع.. فإن ذكرت عيوبه طلقها.. وإن سكتت عن عيوبه علقها لا مطلقة ومتزوجة أي أهملها مع بقائها في ذمته.

(٣) تمدحه كليل تهامة ليس فيه أذى، بل لذيذ كريم الأخلاق لا تخشاه، لا يسأم منها ويملها.

(٤) شبهته بالفهد لكثرة نومه كما يقال، أنوم من فهد، غافل عن تعاهد منزله وما ذهب منه وما بقي، وهو بين الناس شجُاع كالأسد.

(٥) أي أنه يلف الطعام لفاً ويكثر منه، ويشرب كل ما في الإناء، وعند نومه يلتف بغطائه عنها دون اهتمام بها، ولا يلمسها بكفه ولا يتحسسها ليعلم إن كانت تشتكي من شيء.

(٦) أي أنه خائب لا يقترب منها.. وأموره مطبقة عليه لحمقه، وكل داء ومرض يجتمع فيه.. وهي معه غير آمنة فإما أن يشج رأسها أو يكسر بعضها أو يجمع لها الأمرين.

(٧) أي ريحه طيبة كرائحة الزرنب وهو نوع من أنواع الطيب.. وأما مسه فلين لكرمه ورقته ولطفه.

(٨) رفيع العماد هو الشريف المذكور في قومه، طويل حمائل السيف لطول قامته.. كريم كثير الرماد لكثرة ما يوقد نار لأضيافه.. وبيته قريب من النادي وهو مجتمع القوم ومنتداهم.

(٩) إبله كثيرات.. لا يرسلهن للسرح إلا قليلاً.. إذا سمعن العزف على العود لوجود الضيفان أدركن أنهن منحورات لهم.

قالت الحادية عشـــر: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع: أنـــاس من حلي أذني[١]، وملأ من شـــحم عضدي[٢]، وبجحني فبجحت إلى نفسي[٣]، وجدني في أهل غُنيمة بشق[٤]، فجعلنـــي في أهل صهيل وأطيـــط[٥]، ودائس ومنق[٦]، فعنه أقول فـــلا أقبح[٧]، وأرقد فأتصبح[٨]، وأشرب فأتقنح[٩].

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح[١٠].

ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة[١١]، ويشبعه ذراع الجفرة[١٢].

بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها[١٣]، وغيظ جارتها[١٤].

جاريـــة أبـــي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثـــاً[١٥]، ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً[١٦]، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً[١٧].

قالت: خرج أبو زرع، والأوطاب تمخض[١٨]، فلقى امرأة معها والدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين[١٩]، فطلّقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب

---

(١) أي حلاني أقراطاً فهن تنوس أي تتحرك لكثرتها.
(٢) أي أسمنني وملأ بدني شحماً.
(٣) أي فرحني ففرحت.. وعظمني فعظمت عند نفسي.. والتبجح هو التعاظم والتفاخر.
(٤) أي أنه وجدها عند أهل غنم قليلة وحياتهم فيها مشقة وفقر.
(٥) نقلها إلى أرضه حيث صهيل الخيل وأطيط الإبل.
(٦) أي أنه صاحب زرع يدوسه وينقيه.
(٧) لا أحد يرد قولها ويقبحه.
(٨) أي أنها تأخذ كفايتها من النوم لأن هناك من يخدمها.
(٩) لا تترك الشراب حتى تقضي حاجتها.
(١٠) واسع. والعكوم هي الأوعية التي توضع فيها الأغراض ورداح كبيرة.
(١١) أي خفيف اللحم كالسيف سل من غمده.
(١٢) الجفرة الأنثى من ولد الماعز أو الضأن إذا تجاوزت أربعة أشهر.
(١٣) ممتلئة الجسم.
(١٤) لديها من العفاف والجمال والأدب ما يغيظ ضرتها.
(١٥) لا تفشي أسرارنا.
(١٦) لا تفسد الطعام ولا تفرقه لأمانتها.
(١٧) لا تترك القمامة متفرقة تشوه المنزل كعش الطير.
(١٨) أي أنه خرج في وقت الربيع.
(١٩) كفلها عظيم لو استلقت رفعها عن الأرض حتى تصير تحتها فجوة يجري تحته الرمان.

شـــرياً[1]، وأخذ خطياً[2]، وأراح عليَّ نعماً ثرياً[3]، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[4]، قال: كلي أم زرع وميري أهلك[5].

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[6].

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع، غير أن النبي ﷺ أحبّها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذاك طلق، والنبي ﷺ لم يطلق.

هذا الحب لا شـــكّ أغـــاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن ســـلول ومن معه من الخفافيـــش، كمـــا أغاظهم من قبل انتصـــار النبي ﷺ في غزوة بنـــي المصطلق، التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين، لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شـــعوراً أســـوداً، ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تتزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوســـها، فقد امتدّت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق، الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ، وقريش الآن تخشـــى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة.

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنين في أحد والرجيع وبئر معونة وغيرها.. لم تزدهم إلاّ صلابة وعزماً واتّقاداً.. كأنها النار التي تذيب صـــدأ الحديد.. كانت لقاحاً عاد بعده الجســـم صحيحاً منيعاً، فها هو النبي ﷺ يرســـل جيشاً لرصد قوافل قريش، التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

---

(١) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(٢) الرمح.

(٣) كثيرة والمقصود الثروة.

(٤) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٥) أعطيهم.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).